تزممارت، أحياء في قبور

بقلم محمد بن صالح شتنبر 2020

كان يوما يحمل معه شؤم الأرض، توقفت شاحنتين عسكريتين في منطقة خواء موحش لا وجود فيها من غير ثلاث بنايات في ساحة شاسعة تحدها أسوار، وبرجي مراقبة، ومن بعيد تتراءى جبال صلدة قفر لا آثار فيها للحياة... كانوا ثمانية وخمسين رجلا، انتشلتهم أياد غامضة من الوجود لتطوح بهم في العدم، وتلحقهم بالنسيان، ليكنفهم الظلام لمدة ثمانية عشر عاما، في مكان مجهول على مقربة من الموت، إنهم ما تبقى ولم يعدم من المتورطين في انقلاب الصخيرات عام 1971 وعملية "البراق" عام 1972 ضد الملك المغربي الراحل، الحسن الثاني.. ضباط مشاة ورواد طيران بمختلف المراتب، وجدوا أسماءهم مقرونة بالانقلابين الفاشلين، أغلبهم كانوا أبرياء كما يدعون.. بات بهم الحال في معتقل سري من صنيعة الشيطان، سجن سيجعل معتقل كوانتنامو الشهير ونظيره أبو غريب في العراق، وحتى محاكم التفتيش في العصور الوسطى يقفون احتراما وتبجيلا لمعتقل مغربي يدعى تزممارت.

رجال يساقون إلى الحفرة

سبق وأن تطرقنا في هذه السلسلة إلى انقلابي الصخيرات والطائرة الملكية عامي 1971 و 1972 وكلاهما فاشلا.. وقد ماتت العقول المدبرة الرئيسية، بعضهم أثناء المحاولة الانقلابية، والبعض الآخر حكم بالإعدام رميا بالرصاص.. ولم يبق سوى المتورطين معهم من قريب أو من بعيد، وقد تم تبرئة أزيد من تسعمائة متهما، بينما حصل فريق آخر على أحكام مخففة، تتراوح بين عام وثلاث سنوات سجنا، إلا ثمان وخمسون متهما رأت المحكمة أنهم يستحقون أكثر، فوزعت عليهم أحكاما بالعقوبة السجنية تتراوح بين خمس سنوات إلى عشرين سنة، إلا واحد منهم حظي بالمؤبد، بعد اعترافه بالقتل تحت التهديد، وهو الضابط محمد الرايس.

كان هؤلاء الرجال يقضون عقوبتهم في سجن مدني بالقنيطرة بشكل طبيعي ممزوج برتابة السجون المملة، حتى ليلة السابع من آب أغسطس عام 1973، وقبل أن يتنفس الفجر، تم إيقاظهم على غفلة ليتلقوا الأمر بجمع أمتعتهم والتهيؤ للرحيل، بعد ذاك توجهوا بهم معصوبي العينين إلى قاعدة القنيطرة الجوية، ومن هناك أركبوهم في طائرتين عسكريتين، ثم حلقتا باتجاه المجهول.

كانت أفكار سوداء تطرق مخيلة المساجين، الإعدام الجماعي، الطرح في عرض البحر، وجبة للأسماك، (...) حتى هبطت الطائرتين، فترجل منهما السجناء أو المخطوفين، ثم زجوا بهم في شاحنتين عسكريتين كالبضاعة، لينطلقوا بهم من جديد.. وبعد أزيد من ساعتين في الطريق الوعرة، توقفت الشاحنتين فجأة، ليسمع دوي تفرقع الأقفال، ثم انطلق عهد الظلام...

إنه يدعى تزممارت، سجن سري أنشئ في نهاية السبعينات في منطقة عازلة يمنع المرور منها وكذا تحليق الطائرات، تحديدا في قرية تحمل نفس الاسم المشؤوم السيئ الذكر، "تزممارت" الموجودة قرب مدينة الراشدية بوابة الصحراء المغربية جنوب المملكة. السجن عبارة عن عنبرين، في كل

عنبر تسعة وعشرون زنزانة يقابل بعضها بعضا في خط مستقيم، ويفتح باب الزنازين على دهليز طويل قصير العرض شبه مظلم.

مع العتمة

في النهاية تم الزج بثمانية وخمسين رجلا كل واحد منهم في زنزانة منفردة، ثم أزالوا العصابة على عيونهم ليفتحوها على العتمة.

يكتب أحد الناجين، النقيب عبد اللطيف بلكبير في مذكراته التي نشرها بالفرنسية:

"الزنازين بطول ثلاثة أمتار وسبعين سنتيمترا، وعرض مترين وأربعين سنتيمترا، وارتفاع ثلاثة أمتار وسبعين سنتيمترا، في الزاوية مرحاض مجرد من طرادة مياه، ومصطبة بيتون دون فراش تستخدم سريرا.. غطاءان مهترئان هما كل الأثاث، لا طاولة ولا كرسي، وعاء من بلاستيك وصحن هما الأدتان الوحيدتان الموضوعتان تحت تصرف السجين. "

هكذا إذن وجد السجين نفسه منفردا في زنزانة ضيقة، ترك أعلاها ثقب بقطر عشرين سنتيمتر ينفذ إلى سقف آخر من الصفيح يحجب ضوء الشمس، وفوق الزنزانة سبعة عشر ثقبا تطل على دهليز يميل كذلك إلى الظلمة. ثقوب تأتي بنور باهت، وما يشبه هواء يكفي لتجرع الموت على مهل في اللحظات الأولى، كنف صمت جنائزي أرجاء المعتقل، كانت مراسيم الدفن قد تمت وانصرف من شيعها.. بعد نصف ساعة تحول المعتقل إلى سوق أسبوعي، وصار كل المساجين يصيحون في غمرة الظلام لمعرفة أين هم، ولا أحد يجيب إلا رفقاء المحنة التعساء، وقد تعرف كل مسجون على جاره، وكل واحد منهم يسأل عن أصدقائه، هل هم هنا أم في العنبر الآخر، ـ وهنا المقصود أن هناك فريقين في المعتقل، الأول، هم ضباط مشاة في مدرسة أهرمومو والمتورطون في انقلاب 1971، والفريق الثاني هم رواد الطيران من قاعدة القنيطرة الجوية، والمتورطون في انقلاب 1972 .. مرت الأيام، واستوعب السجناء مدى فظاعة مقامهم.. تخيل نفسك في زنزانة لا يتعدى طولها ثلاث خطوات وعرضها خطوتين، تغرق في شبه ظلام ما عدا ذروة الزوال، حيث يتسلل القليل من الضوء إلى أرجاء الزنزانة، أما الطعام والشراب، فتم اختياره بعناية يكفي للحفاظ على الروح البشرية أطول وقت مكن لتجرع الآلام وتكفير ذنب تجرئهم على الملكية، في الصباح، يؤتى لهم بكأس قهوة تفوح منها رائحة الشعير وقطعة خبز صلبة كما لو صنعت من الإسمنت، في الغذاء، يجودون عليهم بأردأ القطاني المسوس، وفي العشاء يكون نصيبهم معجنات نتنة كما لو طبخت ببول البهائم.. فما أخبار الماء؟

نصيب كل سجين من لماء هو خمسة لترات يوميا، يستعمله في الغسل والشرب والمرحاض الموجود عند زاوية الزنزانة.

منجل الموت يحصد الأرواح

لقد ظن أغلب المعتقلين أنها مجرد فترة وجيزة وستنتهي، وبدأت الشائعات تروج داخل المعتقل تفيد بأن الجنرال أحمد الدليمي سيزور المعتقل وينتهي هذا الكابوس المفرط في قبحه، فلا يعقل ترك إنسان

في هذه الظروف مهما بلغ ذنبه، ذلك لم يحصل أبدا، فبدأت الأرواح تتساقط سراعا في وسط قذر، وصفه أحد الناجين قائلا:

" لو اجتمع أهل البلاغة والبيان لما استطاعوا وصف جرف هار اسمه تزممارت".

كان أول من راح ضحية المعتقل، هو الطيار محمد الشمسي، أحد المتورطين في انقلاب الطائرة الملكية، والمتواجد في العنبر الثاني، الذي يوصف بعنبر الموت بحيث لم ينج منه سوى أربعة سجناء من أصل تسعة وعشرين، لم يتوقع أحد في العنبر أن يكون محمد الشمسي أول الهالكين المودعين في حفر تزممارت الجهنمية.. لقد كان الشمسي يحثهم على الصبر ويرفع عزيمتهم ويصنع لهم أملا مزيفا هو نفسه لا يؤمن به، حتى ذات يوم فقد صوابه وبدأ يخبط على باب زنزانته ليل نهار يشتم الحراس ويتذمر.. استمر على حاله لقرابة أسبوع، ثم صمت فجأة، وحين فتح الحراس الزنزانة لتقديم وجبة الفطور، سقط رأس الشمسي على الدهليز حيث كان متكئا على الباب قبل أن تنطفئ منه نسمة الحياة..

كان ذلك في سنة 1974 بعد مرور عام واحد في المحنة، ليدشن الشمسي سلسلة رهيبة من الوفيات البشعة.. حمله الحراس بأسماله المتسخة ودفنوه في ساحة السجن دون عسل ولا كفن ولا صلاة في بلد إسلامية.. انهال الحراس على جسده بالتراب وهم يلهثون، كما لو كانوا يتخلصون من الجيف.. فتبين للسجناء أن مصير رفيقهم الراحل هو ما ينتظرهم لو تدفق الاستسلام إلى نفوسهم. مات الشمسي وتهيأ غيره لنفس المصير، والبعض استعجل الموت ونادى عليها ويترجى منها الخلاص. لينتحر في زنزانته وقد شنق الحياة في رقبته بما أوتي من أسمال وهو يصرخ في زملائه قائلا لهم:

"يا أصدقائي.. إن الخلاص الوحيد من هذا الجحيم هو الانتحار.. صدقوني .. لن نخرج من هنا إلا ونحن أموات.."

مرت السنون وأجهزت تزممارت على الرجال، هدت قواهم وقمعت كبريائهم وسرقت أرواحهم.. اثنان وثلاثون رجلا التهمتهم الحفرة الجهنمية طيلة ثماني عشرة سنة من أهوال سجن تزممارت.